

حقيقة دعوة الرسل

عناية الله بالإنسان

حاجة البشرية إلى الرسل

الاتصال الجليل بين الله ورسله المختارين ووجوب الإيمان بالرسل وكتبهم

موكب الرسل والأنبياء المتواصل

الحمد لله وحده.. والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.. محمد صلى الله عليه وسلم.. وبعد.

عناية الله بالإنسان

ما أعظم هذه الدعوة.. دعوة الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، إنها دعوة لا تكفي للحديث عنها تلك السطور القليلة في هذه الرسالة القصيرة، إنها دعوة حملها أصحابها وقاموا بها خير قيام، فالرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام هم الذين جاءوا بالهداية من عند الله مبشرين ومنذرين كلما ضلت البشرية وانحرفت عن سبيل الله.

وسوف تدهش كثيراً حين تعلم كم كان عدد هؤلاء الرسل والأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم.. تخيل هذا الرقم: (124000)، (مائة وأربعة وعشرون ألفاً).. المرسل منهم ثلاثمائة وخمسة عشر... نعم!! هذا هو عددهم.. (كما جاء في رواية أبي أمامة قال أبو ذر: قلت يا رسول الله: كم وفاء عدة الأنبياء؟ قال: مائة ألف، وأربعة وعشرون ألفاً، والرسل من ذلك: ثلاثمائة وخمسة عشر، جما غفيرا" والحديث صححه الشيخ الألباني في مشكاة المصابيح... الله أكبر!! ما هذا

العدد الهائل من الرسل والأنبياء؟ من لدن آدم عليه السلام إلى خاتم الرسل والأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم.. عدد هائل من خيرة الخلق اصطفاهم الله عز وجل لهذه الدعوة واختارهم سبحانه، ورباهم على عينه ورعاهم منذ طفولتهم.. وزينهم بكل ما يحب الناس إليهم وأبعدهم عن كل رجس وشرك وأيدهم بمعجزاته وآياته.. فبعث إلى كل أمة نبياً.. فخطبوا قومهم ناصحين لهم ومشفقين عليهم من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة.. لذلك يجب أن نقف طويلاً أمام دعوة الرسل والأنبياء.. ونحاول أن نضع أيدينا على حقيقة هذه الدعوة.

حاجة البشرية إلى الرسل

إن دعوة الرسل والأنبياء لا تأتي إلا والبشرية في أشد الحاجة إليها.. يقول تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾.

كان الناس أمة واحدة. على نهج واحد هو توحيد الله عز وجل.. وطال عليهم عهد كانوا فيه على نظام واحد ومنهج واحد داخل الأسرة الأولى.. آدم وحواء وذريتهما.. حتى نمت هذه العائلة الأولى وكثر أفرادها وتفرقوا في المكان وتطورت معاشهم.

ثم اختلفوا وأنحرفوا عن دين الله، وأجتالتهم الشياطين، وأخذوا ألهة يعبدونهم من دون الله، عندئذ بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق.. لكي يحكموا به بين الناس فيما اختلفوا فيه.. ولكي يسير الناس على نهجه وطريقته.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان بين نوح وادم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين. "هذا حديث صحيح على شرط البخاري".

الاتصال الجليل بين الله ورسله المختارين ووجوب الإيمان بالرسول وكتبهم

إن دعوة الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام تبدأ أول ما تبدأ بهذا الاتصال العلوي الجليل بين الله سبحانه والمختارين من عباده، يقول تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآيَاتِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ﴾.

فإنما يتم كلام الله لرسله بواحدة من ثلاث: (وحيًا) يلقيه الله في النفس مباشرة فهو من الله.. أو (من وراء حجاب) كما كلم الله موسى عليه السلام.. (أو يرسل رسولاً) وهو الملك (فيوحي بإذنه ما يشاء)، كما ورد عنه صلى الله عليه وسلم.

إنها دعوة يجب الإيمان بأصحابها، فيجب الإيمان بمن سمي الله تعالى في كتابه من رسله، والإيمان بأن الله تعالى قد أرسل رسلاً سواهم وأنبياء، فلا يعلم أسماءهم وعددهم إلا الله تعالى الذي أرسلهم، فقد قال تعالى عنهم: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾.. فيجب الإيمان بهم جميعاً وأن خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم.

إن دعوة الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام.. عمادها الكتب المنزلة على الرسل من عند الله، فيجب الإيمان بها جميعها، وأنها حق وهدى ونور، وأن آخر هذه الكتب هو القرآن الكريم مصدقاً لكتب الله السابقة ومهيماً عليها جميعاً، والذي نزل على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم. فلا يسع أحداً من الناس سماع بدعوته إلا الإيمان به، والتصديق بهذا الكتاب الذي جاء به من عند الله، واتباع كل ما جاء به من الشرائع، وإلا فقد جحد بدعوة جميع الرسل والأنبياء، يقول تعالى:

﴿أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ﴾.

إن دعوة الرسل والأنبياء.. بقدر ما هي دعوة عظيمة فهي تبعة ثقيلة.. إنها دعوة أدى أصحابها الأمانة وبلغوا جميع ما أرسلوا به من عند الله وبينوه بياناً لا يسع أحداً ممن أرسلوا إليه أن يجمله أو يخالفه.. فهي دعوة واحدة بهدى واحد من الله للإنذار والتبشير.. ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

فمصير البشرية كلها مرتبط بتلك الدعوة.. فالرسل والأنبياء يبلغون الدعوة.. ثم يتحقق مصير البشر من خلال موقفهم من هذه الدعوة إما القبول: فتكون سعادتهم في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة.. أو الرفض: فيكون شقاؤهم في الدنيا والعذاب في الآخرة.

موكب الرسل والأنبياء المتواصل

إن دعوة الرسل والأنبياء-عليهم الصلاة والسلام-موكب متصل على طريق التاريخ البشري.. فكل رسولٍ ونبيٍّ إنما جاء برسالة الإسلام من عند الله فهو الدين الذي أرتضاه الله للناس كافة في كل زمان ومكان وإن تنوعت التفاصيل والتشريعات بحسب حاجات الأمم والأجيال.. ثم يقع الانحراف بعد ذلك ويبعد الناس نهائياً عن دين الله.

وهنا يجيء نبيٌّ أو رسولٌ آخر من عند الله يدعو لناس إلى عقيدة التوحيد ويُنقي ما علق بها من انحرافات.. إلى أن ختم الله تعالى هذا الموكب ببعثة محمدٍ صلى الله عليه وسلم.. فهو الحلقة الأخيرة في سلسلة هذا الموكب الكريم، يقول تعالى:

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾.

إن هذا الدين الذي شرعه الله للمسلمين المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم.. هو ما وصى به سبحانه من قبل نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى "صلوات الله عليهم".. إذا فلماذا النزاع بين اليهود والنصارى وهم أتباع رسولين من رسل الله موسى وعيسى عليهما السلام؟ ولماذا يرفض أهل الكتاب رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وهو الرسول الخاتم، ويرفضون دين الإسلام؟ إن هؤلاء وهؤلاء لا يجوز لهم ولا يسعهم إلا الالتحاق بهذه الرسالة الخاتمة التي يحملها آخر الرسل والأنبياء!!

فالوصية التي صدرت من رب الناس إلى كل الناس (أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه).. فالكل مطالب بإقامة "دين الإسلام".

وغير ذلك فهو تبيد للوصية ونقض للعهد.. لا يكون معه إلا غضب الرب.. وعقابه في الدنيا والآخرة، يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

إنها ولا شك حقائق هائلة وضخمة.. تلك التي تحيط بهذه الدعوة الجليلة.. دعوة الرسل والأنبياء..

ولكن إلى هنا نصل إلى أهم وأخطر حقيقة من حقائق هذه الدعوة. هذه هي الحقيقة.. بينها لنا القرآن الكريم.. في قصص الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً، يقول تعالى:

﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

يقص علينا كتاب الله قصص الرسل للموعظة والبيان.. بيان التصور الذي يرتكز إليه هذا الدين كله.. إنها حقيقة التوحيد، يقول تعالى:

﴿وَأذُكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾.

لقد جاء التعبير القرآني عن حقيقة التصور لهذا الدين.. بالأمر والنهي معاً بحيث يؤكد أحدهما الآخر، يقول تعالى:

(يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ).. إنه الأمر بعبادة الله.. وبيان أن ليس هناك إله يُعبد سواه، ويقول تعالى:

(أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ).. إنه النهي عن عبادة غير الله.. فلا عبادة إلا لله وحده دون سواه.

هذا بيان لحقيقة التوحيد: الأمر بعبادة الله وحده بلا شريك، والنهي عن عبادة غيره.. وذلك التأكيد في السياق القرآني لا يسمح للشرك أن يدخل في أيّة صورة من الصور.. وهذه هي دعوة الرسل والأنبياء جميعاً صلوات الله وسلامه عليهم.

والبيان القرآني يزيد هذه الحقيقة تأكيداً.. ويبين أنها سنة ربانية.. على مدار التاريخ البشري.. وذلك في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

نعم.. هذه هي حقيقة دعوة الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام .. فلقد كان التركيز دائماً في الدعوة على أمر واحد هو: تعبيد الناس لربهم الحق.. ونزع السلطان من الطواغيت.. ورده إلى صاحب السلطان.. الله رب العالمين.

ولكن.. ماذا كان موقف البشرية من دعوة الرسل والأنبياء.. لقد كان استقبال الضالين دائماً لهذه الدعوة هو سوء الأدب والاستهزاء والتكذيب والإصرار على الباطل، يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ. وَلَئِنِ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾.

إنه الاعتراض على بشرية الرسول.. واستبعاد أن يتصل بشر بخالقه وكيف يتحدث باسم الله وهو ليس من السدنة أو الكهنة.

ولا يقف القوم عند هذا.. إنما يتهمون رسوهم بالافتراء على الله يقول تعالى: (إن هو إلا رجل افتري على الله كذبا، وما نحن له بمؤمنين)

ولا يقفون عند هذا.. إنهم يتهمون رسوهم بالسفاهة والكذب، يقول تعالى: (إنا لنراك في سفاهة، وإنا لنظنك من الكاذبين).

ولا يقفون عند هذا.. إنه البغض والكرهية والطرده من المجتمع، يقول تعالى: (قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ).

ولا يقفون عند هذا.. إنهم يتهمون رسوهم بالضلال، يقول تعالى: (قال الملأ من قومه: إنا لنراك في ضلال مبين)!

بالضبط كما قال مشركو العرب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه صبا! بل هو كاهن أو ساحر!

إن دعوة الرسل والأنبياء دائماً ما يحيط بها الشدة والكرب، يقول تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

إن الرسل والأنبياء يواجهون الكفر والجحود.. وتمر بهم الأيام وهم يدعون الناس فلا يستجيب لهم إلا القليل.. إنها ساعات صعبة وحرجة.. ولكن سرعان ما يتحقق وعد الله ويأتي النصر من عند الله القوي العزيز.. يأتي النصر بعد بذل أقصى الجهد والطاقة.. يأتي النصر مجرداً عن أسبابه الظاهرة التي يتعلق بها الناس.. يأتي النصر من عند الله.. فينجي الله الذين يستحقون النجاة ويقع بأس الله بالمجرمين.. وتلك سنة الله في دعوة الرسل والأنبياء.

هذه صورة مختصرة لحقيقة دعوة الرسل والأنبياء-عليهم الصلاة والسلام-فليس لنا إلا أن نمضي على طريقهم.. ونسير على هداهم.. ونقتفي أثرهم إمتثالاً لأمر الله وإقتداءً بهم.

لقد قال ربعي بن عامر وهو ليس نبياً ولا رسولاً قولته المشهورة لرستم قائد الفرس في القادسيّة: (إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة).. ولكن القوم لا يدركون حكمة الله في تكليف عباده الذين آمنوا به وأخلصوا له.. بأن يقوموا بحمة البلاغ والبيان لدين الله.. يقوموا بمهمة الرسل والأنبياء.

اللهم اجعلنا ممن يدرك حقيقة دعوة الرسل.. اللهم اجعلنا امتداداً لدعوة الأنبياء

والمرسلين.